روح المقامرة والمتاجرة

تفسد عاطفة الخير والواجب فى الجمهور

بقلم الأستاذ س . ق

نحن أمة من المقامرين فى هذه الأيام .

تلك تهمة غليظة ولا شك ، ولكننا فى حاجة إلى أن نسمع الكثير من مثل هذا الاتهام الغليظ ، وأن نجبه به فى عنف وقسوة ، وبلا مداراة ولا ترفق . وقد يكون من الخير فى بعض الأحيان أن نقدم الدواء للمريض فى "برشامة" ولكن من الخير فى أحيان أخرى أن نجرعه له فى غلظة وصراحة .

نحن جميعا نقامر فى هذه الأيام ، مقامرة مباشرة أو غير مباشرة : فإذا نحن ترفقنا قليلا فى الوصف ، قلنا : إننا نتاجر ولا نعمل شيئا إلا أن نقصد من ورائه ما يقصد المقامر او المتاجر .

فأما المقامرة المباشرة فتتجلى فى ملاعب القمار المنتشرة فى أنحاء البلاد على الرغم من القوانين كما تتجلى فى ميادين السباق ، وهى مع الأسف تجتذب جميع الطبقات فى مصر على السواء وبخاصة طبقة "أبناء الذوات" كما أن هناك مقامرة متنقلة يطوف بها بعض الباعة على المقاهى ومعهم السجائر والمانجو والفستق وآلة "روليت أتوماتيكية" أو لعبة "جوز وفرد". وبلا كبير تردد يمكن أن نضيف إلى المقامرين طبقة العاكفين على شراء أوراق النصيب يبتغون من ورائها الغنى المفاجئ والثروة الطارئة بلا كد ولا جهد .

وروح المقامرة روح خبيثة ، فهى فى صميمها ترمى إلى كسب الثروة من غير طريقها ، وبلا جهد يبذل فى تحقيقها ؛ وتفشى هـــذه الروح يعنى الانحراف فى التفكير والانحراف فى الاتجاه العملى . فالشاب الذى يبدأ حياته معتمدا على ثروة تهبط عليه من السماء فى صورة ورقة نصيب رابحة ، أو رهان كاسب على جواد ، أو لعبة ناجحـــة على مائدة ، هذا الشاب لن يسلك الطريق القويم فى التفكير المثمر ، ولن يكلف نفســه مشاق الجهد فى العمل المنتج بل سيعيش باحثا عن الكنز الذى تخبئه له الأيام ، كما يعيش الباحث عن الثروة فى الأحلام !

والتفكير على هذا النحو تفكير مريض يقتل فى النفس الطموح الحقيق ، الذى يقوم على اعتقاد الشاب أنه يستطيع النجاح بالعمل وبإبراز مواهبه الكامنة ، ونفس المقامر من أشد النفوس قلقا واضطرابا وفسادا ، لأنها متأرجحة فى كل وقت فوق عوامل لا تملك تصريفها

ولا يد فيها لغير القدر المجهول الذى يترقبه المقامر خائفا وجلا ، كأنما ينتظر الحكم فى كل لحظة بالإعدام أو البراءة . وهذه حالة تهد أسس الأخلاق والعزائم وتحيل الإنسان ريشة طائرة فى مهب الرياح .

وقد أسلفت أن العكوف على شراء أوراق النصيب ابتغاء الربح المفاجئ نوع من المقامر له جميع عيوبها . فالآن أذكر أن له عيبا خاصا به بعد هذه العيوب كلها . ذلك أنه يعطل عاطفة الخير فى نفس الجمهور ، الذى يعتاد ألا يتبرع للمؤسسات الخيرية التى ينفق عليها من ربح هذه الأوراق إلا إذا طمع فى الربح الوفير .

وصحيح أن هذه الأوراق تزيد دخل هذه المؤسسات ذلك الدخل الذى هى فى أمس الحاجة إليه ، والذى لولاه ماقامت ولا عاشت . وهذه وجهة نظر ، ولكن هناك وجهة نظر أخرى ، إذ نحن نحيي هذه المؤسسات لنقتل عاطفة الخير فى الناس ؛ ونقيم أسسها على رفات العطف الإنسانى . ولا أتردد فى القول بأن بناء النفوس على أسس قويمة خير من إقامة المؤسسات على دعائم متينة !

وقد يكون ما أرمى إليه مثلا أعلى صعب التحقيق ، ولكن المثل العليا دائما تستطيع أن تقودنا إلى منتصف الطريق .

أما الواقع والواقع وحده فيقف بنا عند أول الطريق !

* * *

وهناك غير المقامرة الصريحة ، مقامرة ضمنية أو متاجرة فى أخف التعبيرات .

فقد نندفع أحيانا إلى التبرع بمبالغ من المال لإحدى المؤسسات أو المشروعات ، عن طريق غير طريق أوراق النصيب ، أو نتطوع للخدمة العامة فى ناحية من نواحيها . ولكننا لانتبرع أو نتطوع تلبية لصوت الواجب والضمير ، ولا تحقيقا لعاطفة الخير أو عاطفة التضامن الاجتماعى ؛ إنما نحن نطلب الثمن أضعافا مضاعفة ، وأقل أنواع الأثمان التى نطلبها هو نشر أسمائنا فى الصحف ، وتوجيه قصائد المدح والثناء إلينا ، إن لم نطمح إلى رتبة أو منصب أو صفقة من الصفقات على حساب التبرع الخيرى البرئ أو الجهد السياسى أو الاجتماعى العام .

و يندر أن نسمع عن التبرعات المجهولة ، و " فاعل خير " لا يزال أقل الأسماء ورودا فى قوائم التبرعات والتطوعات ، بل نحن نكشف أنفسنا كشفا لا مواربة فيه ، إذ نصحح فى اليوم التالى كل تحريف فى أسمائنا يقع فى الصحف حين نتبرع بعشرة قروش مثلا لأسرة بائسة ! ، كما يندر التبرع لمشروعات لا يسندها أصحاب النفوذ .

ونسمع بين الفينة والفينة أن " فاعل خير " فى اوربا أو أمريكا تبرع ببضعة ملايين من الجنيهات لأمته . ولا يبعد أن يسخر الكثيرون منا من هذا " العبيط " الذى يتنازل عن كل هذه الثروة بلا مقابل !

ذلك أننا لم نتعود بعد لذة الإحسان ولذة الكتمان ، وهذه الأخيرة لذة مضاعفة منشؤها شعور الإنسان بالسمو على المظاهر الكاذبة ، وراحة ضميره إلى أنه يؤدى الواجب بدافع من وجدانه لا ينتظر عليه جزاء ولا شكورا ، وهى لذة عالية أين منها لذة الشهرة ولذة المنصب ولذة المكافأة أيا كان نوع هذه المكافاة .

ونحن لانطلب من المتبرعين والمتطوعين فينا أن يرتقوا الى هذه الذروة ، فوراء ذلك تربية شخصية واجتماعية نحن بعيدون عنها كل البعد ، ووراء ذلك نفوس عظيمة نحن لانطمع الآن فى التسلق الى مستواها ، ولكننا نتواضع ونتواضع فنطلب منهم أن يقتصدوا فى تطلب الجزاء العاجل والمكافأة المباشرة ، فإن بعضهم ليغالى فى ذلك حتى ليفاوض مبدئيا فيما سينال من جزاء على التبرع أو التطوع ، ويحسب حساب الربح والخسارة قبل أن يمد يده بقرش أو خدمة .

وقد قرأت فى إحدى المجلات أن صاحب مقهى بلدى تبرع لمشروع الحفاء بعشرة قروش فأرسل دولة رئيس الوزراء يشكره على هذه الأريحية بالقياس الى ثروته . وبعد أيام تلقى دولته رسالة خاصة من هذا " المعلم " يطلب فيها قرضا قيمته جنيه واحد !

وسواء صح هذا الخبر أم كان دعابة صحفية ، فللرجل عذره فى هذا وهو يرى كبار الأغنياء المتبرعين للمشروعات الخيرية يقبضون ثمن التبرع مضاعفا ، فلم يزد هو على طلب سلفة قد يكون فى نيته ردها بعد ميسرة !

* * *

على أن هناك نوعا من المقامرة أو المتاجرة أخطر من هذه جميعا ، مقامرة قد لا يخطر على بال الكثيرين وجودها . تلك هى مقامرة الموظفين فى أعمالهم الحكومية .

مفروض أن الموظف يتسلم مرتبه فى نهاية كل شهر جزاء على جهده فى العمل ، ومفروض أنه يؤدى عمله أحسن أداء لأنه واجب لا شكر عليه ، وجزاؤه هو مرتبه الذى تؤديه له الدولة ودافعو الضرائب .

ولكن الآية انعكست ، فما من إحسان فى العمل إلا ليراه الرئيس و يلتفت اليه ، و يثيب صاحبه عليه بالترقية والدرجة ، فإن لم يكن من طبيعة هذا العمل أن يلفت نظر الرؤساء ، فلا إجادة فيه ولا أمانة لأن الجزاء عليه غير مضمون .

هذه روح خطرة ، لأن هناك مئات الأعمال ليس فى طبيعتها الضجيج والبريق ، وليس فيها ما يلفت النظر و إن توقفت عليها أعمال كبيرة من أعمال الدولة ، بل ليست عليها رقابة

ولا تصل اليها أعين الرؤساء ، فالضمير والوجدان الفردى هما الرقيبان وحدهما على حسن أدائها ، فاذا تفشت روح المقامرة هذه فى نفوس الموظفين القائمين عليها لم يعد هناك من ضمان فى القيام بها .

وقد يكون للمحسوبية والوساطة التى تفشت فى الدواوين يد فى بث هذه الروح الخبيثة. وذلك أن كثيرا من الموظفين الأمناء المجدين أهملوا ونسوا ، بينما غيرهم ممن هم دونهم كفاءة وأقدمية قفزوا على السلم درجات درجات ، فلم يبق إذن تارق إلا وسيلتان : المحسوبية والوساطة ، أو الإعلان والضجيج . أما أداء الواجب وإتقانه فلم يعد لهما أى تقدير .

ولقد زاد هذه الروح قوة أن معظم المشتغلين بالأعمال العامة وكثيرا من الزعماء السياسيين ، قد تقاضوا ثمن تضحياتهم مغانم وأسلابا مضاعفة ، وأن المصفقين المهرجين هم الذين نالوا كل شىء . بينما المضحون الصامتون لم يعرفهم أحد .

* * *

ونحن فى حاجة إلى مقاومة هذه الآفة الروحية فى كل مكان . ومقاومتها يجب أن تسير متناسقة الخطوات فى المنزل والمدرسة والمجتمع والديوان ، وأن يشترك فى كفاحها الآباء والمدرسون والرؤساء والزعماء .

فيجب أن تنمى عاطفة الخير والواجب فى نفوس الأطفال سواء فى المدرسة أو البيت فنقلل من المكافآت المادية التى نمنحها لهم فى نظير قيامهم بواجباتهم المنزلية والمدرسية ولا نقدم هذه المكافأة إلا على عمل بارز جدا خارج عن دائرة ما يجب عليهم أداؤه فى العادة .

فتأدية الواجب المدرسى والنجاح فى الامتحان مثلا عملان طبيعيان لا يستحقان أية جائزة ولكن التفوق الواضح يستحق كلمة ثناء ، أما الجائزة فيجب أن نحتفظ بها لعمل خارق كأن يأتى بفكرة مبتكرة فى عمل مدرسى أو عائلى أو اجتماعى ، وحينئذ تكون لها قيمتها وتكون تشجيعا بارزا .

ويجب أن تبث الدعاية المقنعة للمتبرعين والمتطوعين بأن تبرعهم وتطوعهم واجب شخصى أو اجتماعى ينبغى القيام به دون انتظار الشهرة والثناء ، وإن كانت الشهرة والثناء سيجيئان بطبيعتهما وبدون انتظار ، ولكن المعوّل عليه هو الحافز النفسى الذى يجب أن يكون وحده كافيا للعمل الطيب والخدمة الاجتماعية ، ومن المهم أن نتعود العمل الصامت ، ولو تهيأت لنا وسائل الإعلان .

ويجب أن نغذى روح الأمانة فى العمل وتأدية الواجب فى كل دوائر الأعمال بقطع دابر المحسوبية ، وكشف حيل المهرجين من المعلنين عن أنفسهم فى الديوان .

وقد قلنا : إن انتشار روح الوساطة والمحسوبية فى الدواوين كان سببا من أسباب إعلان بعض الموظفين عن أنفسهم وعن أعمالهم ليلفتوا إليهم الأنظار فينالوا الترقيات والدرجات .

فلعل إنشاء مجلس الدولة الذى سيكون عاملا من عوامل الاطمئنان إلى أن ينال كل ذى حق حقه ، وأن تنتفى — إلى حد كبير — الترقيات الاستثنائية والعقوبات الشخصية الانتقامية بسبب رقابته .

لعل إنشاء هذا المجلس يقاوم روح المقامرة والمتاجرة بالأعمال الحكومية ، التى ينبغى أن يكون الحافز إلى اتقانها هو الشعور بالواجب للوطن وللامة التى تؤدى المرتبات .

ويجب أن يقتصد الزعماء والمشتغلون بالشؤون العامة فى استغلال تضحياتهم ومجهوداتهم سواء كان ذلك لهم أو لأقربائهم ومحاسيبهم ، فإن هذا الاستغلال كفيل بأن يقتل فى نفوس الجماهير كل إحساس كريم بالتضحية وكل شعور نبيل بالجهاد الوطنى أو الاجتماعى ، ويحيل المسألة كلها مقامرة أو متاجرة ، وليس أخطر على الشعوب من أن يكون للتضحية ثمن على هذا النحو ، وثمن غير متكافئ معها ولا معقول .

إن المنفعة الصغيرة التى ينالها المتبرع لعمل الخير ، أو المجاهد فى سبيل الوطن ، أو القائم بعمل اجتماعى ، لاتساوى ذلك الأثر السيئ الذى تخلفه فى نفوس الشبان بوجه خاص ، هذه النفوس التى يجب أن تبقى على استعداد للتضحية بلا ثمن ، والبذل بلا مقابل ، وإلا كان تقاعسها نذيرا للمجتمع بالانحلال .

أما المقامرة الصريحة التى تحدثت عنها فى أول المقال ، فلست فى حاجة الى التدليل على وجوب القضاء عليها ، مهما اتسمت بسمة الرياضة كسباق الخيل ، أو سمة البر كأوراق النصيب . فتلك سموم تسمى بغير أسمائها وتؤدى غير ردائها ، ولكن هذا لا ينفى أنها سموم من أفتك أنواع السموم !

س . ق

ويخصون بالشكر . . .

وكان فى مقدمة المشيعين . . .

مناسبة الموت أولى المناسبات بالجلال والوقار ، وأحقها بالخشوع والسكون ، وأبعدها عن التظاهر والتصنع ، والنفس التى لاتحس هذه المعانى كلها فى الموت غير جديرة بأن تحس شيئا فى الحياة .

إلا أننا اعتدنا فى مصر أن تتخذ من الموت فرصة للإعلان عن الأحياء فى مظهر يشبه التهريج إن لم يكن هو التهريج نفسه ؛ وهذه العبارات المحفوظة التى لايكاد يخلو منها إعلان وفاة أو تشييع جنازة أو شكر على الاشتراك فى التعزية ، هذه العبارات المحفوظة المشهورة هى دليل لا يكذب على أن نفوسنا لا تقدر للموت حرمته ، ولا تستشعر الجلال الذى تستحقه هذه المناسبة .

كقولهم : " وكان فى مقدمة المشيعين . . . فلان . . . وفلان " أو " يخصون بالشكر . . فلانا . . . وفلانا " .

وأولئك الذين كانوا فى مقدمة المشيعين ، يذكرون لمناصبهم ومراكزهم على سبيل الافتخار والمباهاة ، وإلا فليس الموت وليست المواساة فيه بالمناسبة الصالحة لذكر الأسماء .

وهؤلاء الذين يخصون بالشكر ، قد لا يكونون ممن شيعوا الجنازة ولا ممن حضروا المأتم ، وإنما أرسلوا برقية تعزية أو مندوبا عنهم بينما الكثيرون من أصدقاء الأسرة وعارفيها سعوا إلى المقبرة ثم شاركوا فى ليلة المأتم ، ولكن لم يتلهم حظ الاختصاص بالشكر لأنهم ليسوا من ذوى الألقاب الضخمة ولا المراكز الكبيرة ، وكذلك قد تكون هناك شخصيتان من مقام واحد ومركز واحد فتخص بالشكر إحداهما وتهمل الأخرى بسبب حزبى أو شخصى !

وأقل ما يقال فى مثل هذا التصرف أنه " جليطة " وقلة ذوق ، وأنه استهانة بعواطف الناس وأقدارهم ممن لا يخصون بالشكر ولا يشار إليهم بكثير ولا قليل مع أنهم قد يكونون أصدق المعزين والمشيعين شعورا بالفجيعة لأنهم إنما سعوا بالعزاء والمشاركة لعلاقة تربطهم بالفقيد أو أحد أفراد أسرته ، بينما أولئك المخصوصون بالشكر ؛ بعثوا ببرقياتهم لمجرد أداء الواجب الظاهرى أو " سد خانة " كما يقولون .

وقد جرت العادة أن يرد أهل الميت ببرقية أو بطاقة شكر على من يعزونهم بالمراسلة ، أما من يكلفون أنفسهم مشقة السعى بالنهار فى تشييع الجنازة ، وبالليل للجلوس فى السرادق فلا يجدون من يسأل عنهم بالرد .

وواضح أن الأولين لم يتكلفوا شيئا مما تكلفه الآخرون ، وأن هذه البرقية بالغة ما بلغت قيمتها لاتبلغ فى حسن العزاء مبلغ من يحضر بذاته ليشارك ويرفه ويسلى ويعزى مدفوعا بعاطفة أو قرابة .

فيجب أن نعرف للناس جميعا فضلهم فى مشاركتنا مصائبنا وألا تكون الأقدار والمراكز سببا فى غبن طائفة والإشادة بطائفة لمجرد المباهاة والإعلان .

على أنه يبقى بعد ذلك أن ننظر فى التقاليد المحيطة بالموت كلها ـــ هذه التقاليد التى لامناص من تغيير فيها أو تهـذيب ، يبعد عنهـا كل عناصر الإعلان ويجعلها خالصة لإدخال العزاء الحقيق على القلوب وللوقار المناسب لجلال الموت .

فالذبائح التى تنحر، والمآدب التى تقام والسرادقات التى تنصب وحملة القماقم ، والمواكب التى تطوف الشوارع والطرقات ، وفرق الموسيق المحزنة والاعلانات عن الوفاة وعن تشييع الجنازوعن الشكر ونشر الأسماء ثم اعادة نشرها مصححة لو وقع أقل خطأ فيها أو تحريف الى آخر هذه المظاهرات الجوفاء يجب أن تختفى من المآتم وأن يحل محلها الهدوء والعبرة ، والاكتفاء بسعى الأقارب الى أقاربهم والأصدقاء الى أصدقائهم للعزاء الحقيق والمشاركة الصادقة فقد يصلح كل شىء للضجيج والإعلان إلا الموت فهو لن يصلح لغير السكون والجلال

ويكفى أن نعيش فى عالم مزيف فى كل شىء من مظاهره ، وفى نفاق اجتماعى دائم فى كل أعمالنا ، فلا نزيف العواطف أيضا ، وبخاصة عاطفة الحزن العزيزة الجليلة ، التى ينبغى أن نخلو فيها لأنفسنا وأقاربنا وأصدقائنا وأن ننفى لديها الأعراض الزائلة والمظاهر الكاذبة وأن نعيش بعض اللحظات صادقين فى شعورنا تعويضا عن الكذب المتواصل فيها وعن النفاق الذى لانجد أنفسنا فى غماره إلا نادرا .

أرى فى جلال الموت إن كان صادقا   جلالة حق لا جلالة باطل

فلا تجعلن الموت حجة كاذب   لمدحه مذموم ورفعة سافل

شاعر حديث